الفصل الأول

تراجم فلسفية

١

المتفلسفة يترجمون لأنفسهم

قدمنا فى التمهيد أن العرب قرءوا ترجمة بَرْزَوَيْه الطبيب لنفسه كما قرءوا كتب جالينوس وقد أكثر فيها من الحديث عن تربيته وسلوكه ومؤلفاته وما صادفه من بعض المحن. فكان طبيعيًّا أن يتأثره بعض المتفلسفة من العرب فى هذا الاتجاه .

وأكبر مترجم لكتب جالينوس هو حُنَيْن بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣ م إذ كان يعجب به إعجاباً شديداً ، فكان طبيعيًّا أن يقتدى به فى الحديث عن نفسه ، وأن يؤلف فى ذلك بعض آثاره . وتصادف أنه وقعت له محنٌ من بعض نُظَرائه وأبناء حرفته . إذ كان يحترف الطب ، وقَرَّبه منه المتوكل ، الخليفة العباسى المشهور ، فكانوا ينقمون عليه ذلك ، وما لبثوا أن أخذوا فى الكيد له ، فادّعوا أنه يمزق الصور الدينية . وما زالوا به حتى غضب عليه الجاثليق .

وكان هذا الصنيع يحدث ضيقاً شديداً فى نفس حنين . فكتب رسالة صور فيها ما أصابه من المحن والشدائد فى ذلك معبراً عن مدى حزنه . واحتفظ لنا ابن أبى أصَيْبِعَة فى كتابه « طبقات الأطباء » بهذه الرسالة التى تعد أقدم نَصٍّ فى ترجمة المتفلسفة لأنفسهم ، وهى تبدأ على هذا النمط .

« إنه لحقنى من أعدائى ومضطهدىّ الكافرين بنعمتى ، الجاحدين لحقّى ، الظالمين لى ، المتعدّين على من المحن والمصائب والشرور ما منعنى من النوم وأسهر عينى وأشغلنى عن مهماتى . وكل ذلك من الحسد لى على علمى وما وهبه الله عز

وجلّ لى من علو المرتبة على أهل زمانى . وأكثر أولئك أهلى وأقربائى . فإنهم أول شرورى وابتداء محنى ، ثم من بعدهم الذين علّمتهم وأقرأتهم وأحسنت إليهم وأرفدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة وقرّبت إليهم علوم الفاضل جالينوس . فكافئونى عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبته طباعهم وبلغوا بى إلى أقبح ما يكون من إذاعة أخسّ الأخبار . . حتى ساءت بى الظنون وامتدت إلىّ العيون ، ووُضع علىّ الرَّصَدُ . حتى إنه كان يحصى علىّ ألفاظى ويكثر اتهامى بما دق منها مما ليس غرضى منه ما أومئوا إليه . فأوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملك فضلا عن أهل مذهبى ، وعُملتْ لى المجالس بالتأويلات الرذلة » .

وحُنين حزينٌ فى مطلع الرسالة لأن من يكيدون له ، ويناصبونه العداء ، من أهله وتلاميذه الذين كان ينتظر منهم العون على المحن لا تدبيرها وحوك خيوطها . وكم يحزن النفس حقًّا أن تكون اليد التى ينتظر منها الإنسان الشكر على ما قدم لصاحبها هى التى تستلّ عليه الآلة القاتلة ، وتحاول أن تطعنه الطعنة القاضية . وهو لون بغيض من ألوان الهون والذلة فى بعض الناس إذ يعود ما يتقدم إليهم من جميل عاملاً لا من نكران الجميل فحسب ، بل عاملا من عوامل الفتك والإهلاك . وقد أعيا هؤلاء الجاحدين أن يأتوا حُنَيْنًا من قبل علمه ومهنته ، فأتوه من قبل دينه وعقيدته ، والعقيدة مغيبة عن الناس . ومفروض أن من يعرفها فى الشخص ذوو قرباه ومن اتصلوا به من تلاميذه ، فإذا أجمعوا أمرهم على أن عقيدته فاسدة كانوا قد طعنوه الطعنة النجلاء .

ويحدثنا حنين أن الباعث للقوم على ذلك كله علمُه وحسدٌ رُكّب فى نفوسهم ، إذ رأوه ينقل عن جالينوس وفلاسفة اليونان آثارهم فى لغة عربية فصيحة ، لا لحنَ فيها ولا استغلاق ، بل بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم . ويعزّى نفسه بما أصاب من منزلة بين أهل الأدب ، ثم يعود إلى الأسى والحسرة ، فإن

من يعادونه هم الأطباء النصارى الذين تعلموا على يديه ، وأنهم ليحاولون أن ينقصوا من علمه وفضله فى الطب ، فيقولوا إنه ناقل ولا يحسن من هذه الحرفة شيئاً ، وفى الوقت نفسه يتتلمذون عليه ، وإذا مرض أحدهم صار إليه . حتى يأخذ منه الدواء . ويذكر أنهم ستة وخمسون رجلا . وهم متفرقون فى خدمة الأمراء والوزراء . ناقمون عليه منزلته من الخليفة المتوكل، وما يزالون يوغرون الصدور عليه. وهو لايقابل ذلك إلا بالصبر وغضّ الطَّرْف ، وإذا ذُكر أحدهم أمامه أثنى عليه . لما يجمعه معه من الديانة والبلدة والصناعة. ثم يقص علينا مكيدة دبرها له معاصره المشهور : بختيشوع بن جبرائيل لدى الخليفة المتوكل، فقد استطاع أن يقنع الخليفة بأنه زنديق ملحد فى دينه . إذ أحضر لديه صورة للعذراء وابنها. والملائكة تحف بهما. وقبَّلها أمامه مراراً . ثم قال له ادع حنين، واعرضها عليه . وانظر ماذا يفعل ، وذهب من توّه إلى حنين فذكر له أن الخليفة عرض عليه صورة للمسيح وأمه، فبصق عليها، وسُرّ الخليفة من ذلك. ثم قال : فإذا عرضها عليك فاصنع بها صنيعى . وأنفذ حنين ما أشار به صديقه ، فغضب المتوكل عليه وأمر أن يُزَجّ به فى السجن . ثم تصادف أن مرض المتوكل، ولم يستطع بختيشوع ولا غيره أن يبرئه من مرضه. فقال: علىّ بحنين، فوصف له دواءً كان سبب شفائه ، فعفا عنه .

والرسالة على هذا النحو خاصة بمحن حنين . وهى محن لا تشرف المجتمع الذى عاش فيه ، أو بعبارة أدق لا تشرف الأطباء من زملائه ، بل إنها تصمهم بأقبح ما يتصف به إنسان من حقد وكنود وأثرة، حتى إنهم ليعمَوْن فى سبيل غاياتهم عن كل معنى من معانى البر والرحمة ، بل إنهم ليتحولون إلى مخلوقات شريرة لا تعرف سوى الختل والغدر وما إلى ذلك من قبيح الصفات والشيم المكنونة فى النفوس الحقيرة .

وإذا كان حنين تأثر فى هذه الرسالة بما كتبه جالينوس عن بعض محنه فإن متفلسفاً آخر كان يعاصره هو محمد بن زكريا الرازى، تأثر جالينوس لا فيما كتبه

عن محنه أو تجاربه ، وإنما فى كتبه عن سيرته وسلوكه الفلسفى : فقد خلّف لنا رسالة وصف فيها سيرته الفلسفية .

والرازى أكبر أطباء عصره ومتفلسفته ، دبَّر مارستان (مستشفى) بلدته الرّىّ ثم دبر مارستان بغداد ، وخدم فى غير بلاط ، وترك كثيراً من الآثار فى الطب والفلسفة بفروعها ، توفى سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وقد تُرجم عدد من مؤلفاته إلى اللاتينية ، وظل إلى القرن السادس عشر حجة فى الطب بالعالم الشرقى والغربى .

ورسالته فى سيرته دفاع عن هذه السيرة وأنها حقاً سيرة فيلسوف أو متفلسف ، وهو يستهلها بأن ناساً عابوا عليه مداخلة الأمراء وأصحاب السلطان والتصرف فى وجوه من المعاش . وقالوا إنه لا يسير سيرة سقراط وما أُثر عنه من الزهد فى الدنيا ومتاعها . حتى إنه كان لا يشرب خمراً ولا يأكل لحماً ولا أعقب نسلا ، ومع ذلك فهذه السيرة لسقراط فى رأيهم مخالفة لمجرى الطبع وقيام النسل وداعية إلى انقراض العالم وبوار البشرية وهلاكها. وردّ الرازى على ذلك بأن ما يقولونه عن سقراط غير صحيح فى جملته . فقد كان يسير هذه السيرة فى ابتداء أمره ، ثم انتقل عنها . فتزوج وحارب العدو وحضر مجالس اللهو ، ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً فى خراب الدنيا وبوار العالم .

ويستطرد الرازى من ذلك إلى بيان سيرته . وهى السيرة الفلسفية التى يرى أن يتصف بها محبّو العلم ومؤثروه ، فيقول إننا لم نخلق لإصابة اللذات الجسدية ، وإنما خلقنا لاقتناء العلم واستخدام العدل : والطبيعة والهوى يدعواننا إلى المتع الحسية . بينما يدعونا العقل كثيراً إلى رفض هذه المتع والعدول عنها إلى العدل والعلم اللذين طلبهما الله منا . فإنه يكره الجور والجهل . وإن العاقل من حسب حساب آخرته وامتنع عن كل لذة تعقب ألماً أو ضرراً يعود عليه . وما دام العالم الآخر هو الدائم غير المنقطع فالمغبون من اشترى لذة بائدة هالكة بلذة باقية غير منقطعة ولا فانية . وقد أحل الله لنا جميع الطيبات . على أن من الفلاسفة من يترك كثيراً من المباحات لتمرين نفسه على ذلك وتعويدها عليه . ولما كنا لا نحب أن يقع بنا ألم

فإن من الواجب أن لا نؤلم غيرنا من الناس والحيوان، فلا نظلم ولا نتلذّذ بالصيد ولا نكدّ البهائم إلا مع قصد ومذهب عقلي عادل . ويرى أن من حقنا قتل الحيوان المفترس والمؤذى مثل الحيات والعقارب ، كما أن من حق كل شخص أن يأكل اللحم وأن يمتنع عنه . وما دام الواجب أن لا يؤلم الإنسان غيره ، فينبغى أن لايؤلم نفسه على نحو ما يصنعه الهند من التقرب إلى الله بإحراق أجسادهم وطرحها على الحدائد المشحوذة . والناس مختلفون، منهم المترف الذى رُبى فى النعيم، ومنهم البائس الفقير ، وليس سيان من ينشأ فى غنى وترف ومن ينشأ فى فقر وشظف ، وينبغى للفيلسوف أن تكون سيرته فى طعامه وثيابه ومسكنه على الحد الأوسط من الاعتدال والامتناع عن الإسراف فى اللذات .

ثم يأخذ الرازى فى بيان سيرته وأنها تطابق هذه السيرة الفلسفية المعتدلة علماً وعملا ، فأما العلم فقد ثابر على القراءة والدرس ، حتى أصبح متفلسفاً يؤلف فى البرهان وفى العلم الإلهى وفى الطب الروحانى وفى المدخل إلى العلم الطبيعى وفى الزمان والمكان والمدة والدهر وفى شكل العالم والفلك وفى الجسم والنفس والمادة وفى الطب والكيمياء . ويسمّى بعض كتبه ويقول إنها بلغت نحو مائتين . ثم يقول إنه فى العمل أو الجزء العملى يجرى على طريقة الفلاسفة ، وإذا كان يداخل السلطان فلأجل مداواته فى مرضه ، أما فى عافيته فإنه يؤانسه ويشير عليه بما فيه صلاح نفسه وصلاح الأمة . وهو بعد ذلك ليس عنده شره فى جمع مال ولا سرف فيه ، ولا ميل لمخاصمات الناس ومنازعاتهم ولا رغبة فى ظلمهم . أما مطعمه ومشربه ولهوه فهو فى كل ذلك مقتصد اقتصاده فى ثيابه وما يتخذ من مركب أو خادم أو جارية . وهوايته التى تستنفد وقته هى محبة العلم وتحصيله والإكباب عليه إكباباً شديداً : إكباب على القراءة ولقاء العلماء وإكباب على التأليف ، حتى ضعف بصره وشلّت يده ، وأصبح يستعين بمن يقرأ له ويكتب . وعلى هذه الشاكلة يعرفنا الرازى أولا بسيرة الفيلسوف المثالية ، ثم يطبقها على نفسه ، ليرى قارئه أنه يسير سيرة القوم فى حياتهم العلمية والعملية . وكان الرازى حقاً مثلا

ممتازاً للفيلسوف ، الذى يأخذ نفسه بما ينشر من آراء وأفكار .

وإذا كان الرازى تأثر بجالينوس فى كتابته لسيرته الفلسفية وما قصّه عن سلوكه وتأثر من قبله حنين بن إسحق بما كتبه عن بعض محنه ، فإن من خلفهما من المتفلسفة تأثر به مباشرة فى كتابيه : « مراتب قراءة كتبه » و « فينكس كتبه » فأخذوا يكتبون لأنفسهم تراجم شخصية يعرضون فيها نشأتهم الفلسفية . وما صنفوه وألفوه من كتب مختلفة .

٢

ابن الهيثم

متفلسف عراقى ولد بالبصرة سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م وعنى منذ صغره بالعلوم الطبيعية والرياضية . وبرع فى الأخيرة براعة منقطعة النظير ، حتى أصبح أكبر علَم فيها لعصره . وقرّبه لذلك حاكم بلدته ، وجعله من كبار رجال دولته ، لكنه سرعان ما عزف عن الوظيفة السياسية وانقطع للدرس والبحث . ويقال إنه سمع بنهر النيل وزيادته ونقصانه الدائبين . فقال إنه يستطيع أن يتحكم فيه بالزيادة والنقص ، ونُقل ذلك إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى المعروف ، فاستدعاه لتحقيق ذلك ، ولبّى دعوته ، إلا أنه حين عاين النيل ودرّسه انكسرت همته ، وعرف أن أمره لا يجرى حسب ما ظنه . فاعتذر للخليفة ، وقبل عذره ، وعينه ببعض الدواوين ، وقَبِل ذلك خوفاً من بطشه المشهور عنه لا رغبة فى الوظيفة ، ثم أجال فكره فى أمر يتخلص به منه ، فلم يجد وسيلة إلى ذلك إلا إظهار البله والخبال ، فصُرف عن عمله ، وظل على هذه الصورة المشوّشة حتى توفى الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه من التأليف

والاشتغال بالفلسفة والرياضة ، حتى وافاه أجله سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م .

واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » برسالة نقلها من خطه . وهي مقالة فيما صنعه وصنفه من علوم الأوائل إلى آخر سنة سبع عشرة وأربعمائة للهجرة . والمقالة بعنوانها تتصل مباشرة بما كتبه جالينوس عن كتبه ومصنفاته مما قدمنا عنه الحديث في التمهيد، وهو يستهلها على هذا النمط .

« إني لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي . فكنت متشككاً في جميعه موقنا بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق . ووجهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون . وتنقشع غيابات المتشكك المفتون . وبعثت عزيمتي إلى تحصيل الرأي المقرب إلى الله جل ثناؤه، المؤدي إلى رضاه . الهادي إلى طاعته وتقواه . فكنت كما قال جالينوس في المقالة السابعة من كتابه "في حيلة البرء" يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهيأ لي منذ صباي — إن شئت قلت باتفاق عجيب . وإن شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالجنون ، أو كيف شئت أن تنسب ذلك — أني ازدريت عوام الناس ، واستخففت بهم ولم ألتفت إليهم . واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندي أنه ليس ينال الناسُ من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين . فخضعتُ لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شيء منها بطائل . ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا إلى الرأي اليقيني مسلكاً جدداً "واضحاً" له . فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . ولم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطاطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات التي هي ذات الفلسفة » .

وواضح من هذا المطلع لترجمة ابن الهيثم أنه شُغل منذ أول أمره باختلاف

الفِرَق ، وقد اهتدى بفطرته إلى أن الحق واحد وأن الاختلاف بين الطوائف والملل والمذاهب إنما هو فى طريق الوصول إليه ، واقتنع بأن معرفة الحق هى التى تقربه إلى ربه . فبعث عزيمته إلى هذه المعرفة التى لا تنال إلا بالعلم . وبذلك تحددت وسيلته وغايته . فهو يتوسل بالعلم إلى معرفة الحق الذى يرضى الرب ويهدى إلى طاعته وتقواه . وحاول ذلك أولا عن طريق كتب الآراء والاعتقادات فلم يحظ بطائل ، وهداه تفكيره إلى أنه لن يصل إلى الحق إلا عن طريق آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، وبحث عن هذا الطريق فلم يجده إلا فى كتب أرسطاطاليس وما رسمه فى المنطق والطبيعيات والإلهيات.

وكل ذلك معناه أنه كان ينزع فى تفكيره الفلسفى منزعاً دينيًّا ،وتشهدبذلك مؤلفاته ، فهو يردّ فيها على منكرى النبوات والمارقين عن الدين مثل ابن الراوندى . وهو يعلن إيثاره لكتب أرسطو على كتب غيره من الفلاسفة فقد وجد فيها ضالته ، وهى الربط بين الأمور الحسية ربطاً ينتهى بها إلى الصور العقلية التى كان ينشدها .

ونراه بعد هذه المقدمة يتحدث عن كتب أرسطاطاليس فى المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات حديثاً تفصيليًّا يصور فيه كيف أن أفكارها تتسلسل ، فتُسْلم كل حلقة إلى أختها ، حتى تنتهى إلى الإلهيات . وقد استمرت فى عقولنا الفروع والأصول . وابن الهيثم دقيق كل الدقة فى فهمه لفلسفة أرسطاطاليس التى لم تكن تعتمد على شىء مثالى أو خيالى على نحو ما هو معروف عن أستاذه أفلاطون ، إنما كانت تهتم بالمحسوسات أو قل إنها كانت تبدأ منها ، ولم يكن يدرس العام ليتحول منه إلى الخاص ، بل كان يدرس الخاص ليتحول منه إلى العام ، فهو يبدأ بالجزئيات ثم يتحول إلى الكليات .

وانتفع ابن الهيثم بهذا المنهج فى تفكيره الرياضى . فلم يقف به عند التفكير النظرى أو التفكير الكلى العام ، بل أخذ يعنى بالجزئيات وبالتجارب ليصل من ذلك إلى نظرياته وآرائه فى فلسفة الضوء وغيره ، واستطاع أن يسجل ملاحظات

نفسية هامة فى الإبصار والإدراك الحسى ، وبذلك أخذت الأبحاث الرياضية عنده شكلا علمياً قائماً على الفحص والتجربة ، ولم تضل فى أعماق أومتاهات وراء المادة ، فقد تلقن كما يقول هنا فى هذه المقالة البديعة أن يهتم بالحس بل أن يبدأ به دائماً . وأن لا يتكلم فيما ليس له مشخصات فى الخارج وإلا كان كمن يرقم فى الماء . فالتفكير الرياضى ليس شيئاً وهمياً ولا خيالياً .. وإنما هو آراء مستنبطة من تحليل الظواهر المادية . وبهذا التفكير المستقيم المستمد من فلسفة أرسطاليس الطبيعية الواقعية أصبح ابن الهيثم أكبر رياضى عرفه العالم الإسلامى.

ونراه بعد تحليله لفلسفة أرسطاليس يعلن إعجابه الشديد بها وأنه تعلق بأصولها ومبادئها . يلخصها تارة ويشرحها تارة أخرى ، رياضة لفكره ورجاء أن ينتفع بها غيره من الناس ، وليجد فيها ذخراً ومتعة لوقت شيخوخته ، يقول :

« وأنا ما مُدَّت لى الحياة باذلٌ جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك متوخياً به أموراً ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد وفاتى ، والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم . والثالث أنى صيَّرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم ، فكنت فى ذلك كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه "فى حيلة البرء" : إنما قصدت وأقصد فى وضع ما وضعته وأضعه من الكتب إلى أحد رجلين ، إما إلى نفع رجل أفيده إياه ، وإما أن أتعجل أنا فى ذلك رياضة أروض بها نفسى فى وقت وضعى إياه وأجعله ذخيرة لوقت الشيخوخة » .

ثم يأخذ ابن الهيثم فى شرح مصنفاته فى الأصول الأرسطاطالية الثلاثة ، ويذكر أن ما صنفه فى العلوم الرياضية حتى هذا التاريخ الذى كتب فيه تلك الترجمة وهو سنة ٤١٧هـ/١٠١٦ خمسة وعشرون كتاباً ويحصيها واصفاً لكل منها . وأكثرها يدور فى الأصول الهندسية والعددية أو الحسابية ، ومنها ما يدور فى الفلك ورَصْد النجوم . وقد جعلته نزعته الدينية يخص سمت القبلة فى جميع المسكونة برسالة

خاصة ، كما كتب رسالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية .

ثم أحصى بعد ذلك كتبه فى العلوم الطبيعية والإلهية . وذكر أنها أربعة وأربعون كتاباً ، ووصف طائفة منها . والصلة واضحة فيها بين أرسطو وبينه ، فهو تارة يلخص بعض كتبه ومقالاته وتارة يرد على من نقضوا بعض أقواله وآرائه. ومن بين ما ذكره رسالة فى بطلان ما يراه المتكلمون من أن الله لم يزل غير فاعل ثم فعل. ورسالة أخرى بعنوان أن فاعل هذا العالم إنما تَعلَّم ذاته من جهة فعله . والرسالتان جميعاً تصوران نزعته الدينية وأنه كانت له مشاركة فى أبحاث علم الكلام. ثم ينهى رسالته بقوله :

« ذلك سوى رسائل ومصنفات عدّة حصلتْ لى فى أيدى جماعة من الناس بالبصرة والأهواز ضاعت دساتيرها . وقطَعَ الشغلُ بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نَسْخها . وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء . فقد اتفق مثله لجالينوس ، حتى ذكر ذلك فى بعض كتبه . فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة ودفعت دساتيرها إلى جماعة من إخوانى وقطعنى الشغل والسفر عن نسخها ، حتى خرجتْ إلى الناس من جهتهم . وإن أطال الله لى فى مدة الحياة وفَسَح فى العمر صنفت وشرحت ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى . ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى الوجود فكرى . والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وبيده مقاليد كل شىء . وهو المبدئ والمعيد . وهذا ما وجب أن أذكره فى معنى ما صنعته واختصرته من علوم الأوائل . قصدت به مذاكرة الحكماء الأفاضل . والعقلاء الأماثل . . وقلت فى ذلك كما قال جالينوس فى كتابه « فى النبض الكبير » : ليس خطابى فى هذا الكتاب لجميع الناس بل خطابى لرجل منهم يوازى ألوف رجال بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفَهِم الفاضل منهم ، ليعرفوا رتبتى فى هذه العلوم ويتحققوا منزلتى من إيثار الحق ومن طلب القربة إلى الله فى إدراك العلوم والمعارف

النفسية .. فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل فى جميع الأمور الدنيوية ، والعدل هو محض الخير ، والذى يفعله يفوز من العالم الأرضى بنعيم الآخرة السماوى ، ويعتاض عن صعوبة ما يلقاه من ذلك مدة البقاء المنقطع فى دار الدنيا بدوام الحياة منعماً فى الدار الأخرى . وإلى الله تعالى أرغب فى توفيق لما قرّب إليه ، وأزلف لديه » .

ويذكر ابن أبى أصَيْبعة أنه وجد فى نهاية الرسالة تاريخ كتابتها وهو ذو الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويذكر بعقبه ما ألفه ابن الهيثم إلى سلخ جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وأربعمائة . ويتلو ابن أبى أصيبعة هذه المؤلفات الجديدة بفهرس وجده لكتب ابن الهيثم إلى آخر سنة تسع وعشرين أى إلى ما قبيل وفاته بمدة قصيرة . وبلغت كتبه ومقالاته فى هذا الفهرس الأخير نحو مائتى كتاب ومقالة . وهو إنتاج ضخم يدل على مدى ما قام به ابن الهيثم فى أبحاث الفلسفة الإسلامية من جهد مُضْن . وهو جهد خصب قدره الأوربيون منذ العصور الوسطى ، فترجموا كثيراً من آثاره إلى اللاتينية . كما نقلوا آراءه وأفكاره إلى لغاتهم الحديثة .

٣

ابن سينا

أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق، ولد لأسرة إيرانية سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠م بالقرب من بُخَارى، وكان أبوه يتصرف في أعمال قرية خَرْمَيْثَن للسامانيين، وكان بجانبها قرية تسمى أفْشَنَة تزوج منها، وسكن فيها، وبها ولد له هذا الفيلسوف العظيم. وقد عنى به منذ صغره، فأحضر له المعلمين، ووجهه إلى دراسة الحساب والفلسفة، ولم يلبث أن تيقظت في الصبي مواهبه، فأقبل على دراسة الطب وما ترجم عن اليونان، وتمثل كل ذلك، كما تمثل كثيراً من معارف العرب والفرس والهند. ثم تحول يؤلف مستغلاً كل ما عرفه من مناجم الشرق والغرب، وكاد لا يترك ميداناً من ميادين المعرفة إلا ألف فيه، فألف في الطب والطبيعة وعلم الأحياء، وفي الفلك والرياضة والكيمياء، وفي المنطق والأخلاق والسياسة والتصوف وعلم الكلام، ومن أهم ما اشتهر من كتبه في الفلسفة «النجاة» و «الشفاء» ونال شهرة مدوية في الغرب بكتابه «القانون» في الطب، إذ كان مرجع القوم حتى القرن السادس عشر.

وقد أثر ابن سينا تأثيراً عميقاً في مجال الفكر الفلسفي الإسلامي، وكان تأثيره في الفكر الأوربي واسعاً، فقد تُرْجم له غيرُ كتاب إلى اللاتينية، حتى إذا كان العصر الحديث عُني به المستشرقون في اللغات الأوربية المختلفة، وكتبوا في فلسفته أبحاثاً واسعة. ومن حين قريب أقيمت الاحتفالات لعيده الألفي في الشرق والغرب تقديراً لما قدم من خدمات للعلم والفلسفة والفكر الإنساني، مما جعله فخراً لقومه والعرب، بل للإنسانية والحضارة العالمية. ولا عجب أن لُقِّبَ منذ عصره بالشيخ الرئيس.

وخلَّف ابن سينا كثيراً من المؤلفات والمقالات التى تعد بالمئات، كما خلَّف ترجمة ذاتية قصيرة يجدها القارئ فى ابن أبى أصيبعة، وصف بها شطراً من حياته منذ عُنى أبوه بتعليمه إلى السنة الثانية والثلاثين من عمره. وهى تجرى على هذا النمط:

« قال الشيخ الرئيس: إن أبى كان رجلاً من أهل بَلْخ، وانتقل منها إلى بُخارى فى أيام نوح بن منصور السامانى أمير هذا الإقليم، واشتغل بالتصرف وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضِياع بخارى. وهى من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها أفشنة، تزوج أبى منها بوالدتى وقطن بها وسكن، وولدتُ منها بها. ثم ولدتْ أخى. ثم انتقلنا إلى بخارى، وأحضرتُ معلم القرآن ومعلم الأدب. وأكملت العشر من العمر، وقد أتيتُ على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يُقضى منى العجب. وكان أبى ممد أجاب داعىَ المصريين، ويعد من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخى. وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى. وابتدءوا يدعوننى أيضاً إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ (أبى) يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يُدعى المتفلسف، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين. وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب، على الوجه الذى جرت عادة القوم به. ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على الناتلى. ولما ذكر لى حدّ الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو؟، أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله. وتعجب منى كل العجب، وحذّر والدى من شغلى بغير العلم. وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده

فيها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى : تولَّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرضها علىّ لأبيّن لك صوابها من خطئها ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب . وأخذت أحلّ ذلك الكتاب ، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهّمته إياه . ثم فارقنى الناتلى متوجهاً إلى كركانج . واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعى والإلهى . وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برّزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة » .

فابن سينا يقول إن أباه كان من موظفى الدولة السامانية وأنه نشأ فى بخارى عاصمتهم ، وقد أحضر له المعلمين يعلمونه العلوم الشرعية واللغوية ، فحفظ القرآن وكثيراً من الأشعار ، وأظهر ذكاء نادراً ، ويقول إن أباه كان يؤمن بمبادئ الشيعة الإسماعيلية وما يقولونه فى النفس والعقل وإنه كان يعرف أطرافاً من الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وكذلك كان أخوه . وكانا يجرّانه إلى معتقدهما الإسماعيلى فكان يزورّ عنه ولا يجد له قبولا فى نفسه . وظل على ذلك بقية حياته ، يجفو الشيعة ومذاهبهم ، ويؤمن بما يؤمن به أهل السُّنّة من معتقدات .

ووجّهه أبوه إلى تعلم الحساب والعلوم الشرعية ، فأتقنهما ، وتصادف أن ألمّ ببخارى متفلسف يدعى الناتلى فأنزله أبوه داره ، وألحق به ابنه ليخرّجه فى العلوم العقلية والفلسفية ، وكان أول ما تلقن منه المنطق فى كتاب إيساغوجى ، ولم يكد يمضى معه فيه حتى لفته بذكائه الخارق ، وعُكس الموقف ، فكان ابن سينا

يشرح لأستاذه المسائل والدقائق . واكتفى بما عند أستاذه فى الفن وتحول يطالع الكتب والشروح حتى حذقه ومهر فيه ؛ وكذلك كان شأنه مع أستاذه فى كتاب أقليدس الخاص بعلم الأشكال الهندسية ، فإنه قرأ معه خمسة أشكال أو ستة ثم استقل بالكتاب . وصنع نفس الصنيع بكتاب المجسطى لبطليموس ، وهو فى علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك. ولم يكن الناتلى يفهم مسائل هذا الكتاب حق الفهم فكان يصورها ويشرحها له . ثم فارقه الناتلى فاشتغل بتحصيل الكتب وحده . ورغب فى علم الطب ، فقرأ كتبه المؤلفة ، ولم يلبث أن برّز فيه وأصبح مرجع المشتغلين به . وانفتح عليه كثير من أبواب المعالجات عن طريق التجربة . وهو فى ذلك لا ينسى حظه من الدراسات الفقهية . وأصاب كل هذا النبوغ وسنه لم تتجاوز السادسة عشرة . ويقول :

« ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ؛ فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت فى النهار بغيره . . . وكلما كنت أتحيّر فى مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فُتح لى المغلق وتيسّر المتعسّر . وكنت أرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدىّ وأشتغل بالقراءة والكتابة ؛ فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلىّ قوتى . ثم أرجع إلى القراءة ؛ ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ؛ حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . " وما زلت " كذلك حتى استحكم معى جميع العلوم . ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت إلى الإلهى وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه . والتبس علىّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة . وصار لى محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به . وأيسْت من نفسى ، وقلت هذا كتاب لاسبيل

إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الورَّاقين، وبيد دلاَّل مجلدٌ ينادى عليه . فعرضه علىَّ . فرددته رد متبرم ، معتقداً أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا . فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته . فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتى ، وأسرعت فى قراءته ، فانفتح علىَّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان لى محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور – توفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م – واتفق له مرض تلجْ " تردد " الأطباء فيه، وكان اسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة . فأجروا ذكرى بين يديه ؛ وسألوه إحضارى ، فحضرت ؛ وشاركتهم فى مداواته . وترسَّمت بخدمته . فسألته يوماً الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب . فأذن لى ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ؛ فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، فى بيت منها كتبُ العربية والشعر . وفى آخرَ الفقه . وكذلك فى كل بيت كتبُ علم مفرد . فطالعت فهرس كتب الأوائل . وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفَظَ . ولكنه اليوم معى أنضج . وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء» .

وهذه القطعة تتمم سابقتها وترينا أن عقل ابن سينا نضج مبكراً، وهو هنا يقول إنه توفر نحو سنتين على قراءة المنطق والفلسفة بفروعها المختلفة، يقرأ على نفسه ويفهم بدون معلم ، وكان كلما تحير فى مسألة تردد إلى الجامع وصلى مبتهلا إلى ربه أن يفتح له ما استغلق عليه . وكان يعكف فى الليل على الكتابة

والقراءة . وكلما غلبه النوم أو شعر بفتور تناول قدحاً من الشراب . حتى تعود إليه قوته . ولعل فى هذا ما يشير إلى ما اشتهر به من إغراقه فى اللذات مما خالف فيه سيرة الفلاسفة الأقدمين وسيرة متفلسف مثل الرازى وابن الهيثم معاصره.

ويقول إنه بلغ من شدة تعلقه بالمسائل الفلسفية ومشكلاتها أنه كان يحلم بها ، وربما وجد حل بعض المشكلات فى نومه . ومعنى ذلك أن عقله الباطن كان يشرك عقله الظاهر فى الانشغال بمسائل الفلسفة ، حتى كانت تتراءى له فى الحلم بأعيانها . وما زال مثابراً حتى حذق المنطق والطبيعيات والرياضيات ، وانتقل من ذلك إلى ما وراء الطبيعة من الإلهيات ، فاستغلقت عليه . ولم تنفتح له مسائلها بتاتاً . حتى يئس من نفسه ، وبينما هو فى هذا اليأس يقع له كتاب للفارابى ، فيحل له كل المسائل والمشاكل فى الفلسفة الإلهية . وابن سينا بهذا التصريح يطلعنا على مصدر مهم من مصادر ثقافته الفلسفية .

ويتصادف أن يمرض سلطان بخارى . ويعجز الأطباء عن شفائه ، ويشيرون عليه باستحضار ابن سينا ويكون شفاؤه على يديه . فيوظفه عنده ، ويستأذنه فى دخول مكتبته التى جمعها هو وآباؤه من السامانيين ، فيأذن له . ويدخلها فيجدها مليئة بالنفائس والذخائر فى جميع الفنون والعلوم وما كتبه الفلاسفة الأوائل ، فيعب منها عباً . ويمتلىء منها امتلاء . وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة . ويلاحظ أن معارفه تمت فى هذا الحين . وطارت شهرته فى الناس من حوله ، فأخذوا يطلبون إليه أن يؤلف لهم بعض الكتب . يقول :

« وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى فسألنى أن أصنف له كتاباً جامعاً فى هذا العلم " الفلسفى " فصنفت له المجموع .. أتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان فى جوارى أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقى فقيه النفس متوحد فى الفقه والتفسير والزهد مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول فى قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له فى الأخلاق كتاباً

سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده، إذ لم يُعِرْ أحداً ينتسخ منهما . ثم مات والدى وتصرفتْ بى الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان . ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج ، وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيراً . وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون . وكنت على زى الفقهاء .. وأثبتوا لى مشاهرة دارَّة بكفاية مثلى. ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نَسَا ومنها إلى أبِيوَرْد، ومنها إلى طوس ومنها إلى شَقَّان ومنها إلى سِمْنان ومنها إلى جاجَرْم رأس حدّ خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصدى الأمير قابوس، فاتفق فى أثناء هذا أخْذُ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك . ثم مضيت إلى دهستان ، ومرضتُ بها مرضاً صعباً وعدت إلى جُرْجان . وأنشأت فى حالى قصيدة ، فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى   لما غلا ثمنى عدمتُ المشترى »

وحتى الآن لم يكن ابن سينا قد ألف كتبه الفلسفية والطبية الكبيرة . ولكن سيرته الشخصية تنتهى . ويكتب لنا بقية ترجمته تلميذه أبو عبيد الجوزجانى الذى لازمه فى جورجان وكانت سنه حينئذ اثنتين وثلاثين . وظل معه، ولم يفارقه بقية حياته . وقد ذكر لنا ابن سينا فى هذه القطعة الأخيرة أنه تقلد بعض أعمال السامانيين . ثم دعته الضرورة إلى التحول عن بخارى . ولا يفصح عن هذه الضرورة، ولم تكن سوى استيلاء محمود الغزنوى عليها واستئصاله لشأفة السامانيين منها . وانتقل ابن سينا إلى كركانج عاصمة إمارة خوارزم . وتحدثنا كتب التاريخ أن محموداً الغزنوى طلبه من أميرها . فرفض صاحبنا وهرب فى البلاد التى سمَّاها . وبذلك تخلص من قبضة الأمير الغزنوى . وما زال فى هربه وفراره حتى وصل إلى جرجان والتقى فيها بتلميذه أبى عبيد . ولم يشأ ابن سينا أن يعرفنا بهذه التفاصيل السياسية . وظل بقية حياته ينتقل من بلاط أمير فى إيران إلى بلاط أمير آخر مشتغلا بالشئون السياسية وتدبير أمور الإمارات حيناً . وبالتعليم والتأليف والتصنيف حيناً آخر، حتى لبَّى نداء ربه فى همذان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م .

٤

متفلسفة مختلفون

ما بين أيدينا من أخبار المتفلسفة وخاصة المتطببين منهم يدل على أن غير واحد من جهابذتهم عني بترجمة حياته وحكاية سيرته ، أخذاً بسنة جالينوس فى القديم وما قدمنا من أمثلة عند حنين بن إسحق ومحمد بن زكريا الرازى وابن الهيثم وابن سينا .

وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمتين شخصيتين لعلى بن رضوان الطبيب المصرى وعبد اللطيف البغدادى ، والأول أشهر أطباء مصر فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولد فى الجيزة لرجل فقيركان يعمل فرّاناً ، ولما رأى فى ابنه معالم النجابة عُنى به ، فأسلمه إلى بعض المعلمين ، ولم يلبث أن نقله إلى القاهرة وهو لا يزال فى العاشرة ، ليكمل فيها تعلمه . وفى سن الرابعة عشرة وجد فى نفسه ميلا شديداً إلى تعلم الطب والفلسفة ، فعكف عليهما . يقول ابن رضوان :

« ولم يكن لى مال أنفق منه ، فلذلك عرض لى فى التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم ، ولم أزل كذلك وأنا فى غاية الاجتهاد فى التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فإنى اشتهرت فيها بالطب . وكفانى ما كنت أكسبه بالطب ، بل كان يفضُل عنى إلى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى أملاكاً فى هذه المدينة .. وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيّرها فى كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء

أقصد به حفظ الصحة . وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج . وأجعل قصدى فى كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة . ولا بد أن يحصل مع ذلك كسب ما يُنفق ، فأنفق منه على صحة بدنى وعمارة منزلى نفقة لا تبلغ التبذير ، ولا تنحط إلى التقتير ، وتلزَم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل فى كل وقت ، وأتفقد آلات منزلى ، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته ، وما يحتاج إلى بدل بدّلته . . وأتعرّف ما يمكننى تعريفه من الأمور المزمعة وآخذ له أهبته ، وأجعل ثيابى مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة . وألزم الصمت وكف اللسان عن معايب الناس ، وأجتهد أن لا أتكلم إلا بما ينبغى . وأتوقى الأيمان ومثالب الآراء ، فأحذر العُجْبَ وحب الغلبة ، وأطرح الهمّ الحرصىّ والاغتمام ، وإن دهمنى أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى ، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جُبن ولا تهور . ومن عاملته عاملته يداً بيد . لا أسلف ولا أتسلّف إلا أن أضطرّ لذلك ، وإن طلب منى أحد سلفاً وهبت له ولم أردْ منه عوضاً . وما بقى من يومى بعد فراغى من رياضتى صرفته فى عبادة الله سبحانه . . وأتدبر مقالة أرسطاليس فى التدبير وآخذ نفسى بلزوم وصاياه بالغداة والعشى . وأتفقد فى وقت خلوتى ما سلف فى يومى من أفعالى وانفعالاتى ، فما كان خيراً أو جميلا أو نافعاً سررت به ، وما كان شرّاً أو قبيحاً أو ضارّاً اغتممت به ، ووافقت نفسى أن لا أعود إلى مثله » .

ثم يذكر لنا ابن رضوان الكتب الفلسفية والطبية التى كان يعنى بقراءتها ويستهدى بها ، ولا يسرد علينا فهرست مؤلفاته إنما يسردها ابن أبى أصيبعة . وواضح مما نقلناه من سيرته أنه عُنى فيها بالحديث عن سلوكه . وهو سلوك فاضل يقوم على الاعتدال فى كل شيء ، ومن طريف ما ذكره أنه كان يعد السلف تلفاً غير راجع ، وأنه كان حين يُسلف يظن نفسه واهباً ولا ينتظر بعد ذلك الرجوع فى هبته . ولعل من الغريب أن هذه السيرة المعتدلة تخالف كل المخالفة ما عرف عنه فى مؤلفاته من تشنيعه على سابقيه ومعاصريه ، أمثال حنين بن

إسحق ومحمد بن زكريا الرازى من السابقين وابن بطلان البغدادى من المعاصرين. ولكن لعل هذا الخلق الجامح فى تأليفه لم يكن خلقه فى سلوكه وحياته بين الناس.

وسيرة عبد اللطيف البغدادى التى نقلها عنه ابن أبى أصيبعة لا تتجه هذا الاتجاه من حيث حكاية السلوك الشخصى ، وإنما تتجه إلى حكاية تعلمه وتنقله فى البلاد ، فقد رحل إلى الموصل ، ومنها إلى الشام ، حيث حاول الاتصال بصلاح الدين الأيوبى ورجاله من أمثال القاضى الفاضل ، وتوجه إلى مصر ، ثم عاد إلى الشام ، واتصل بعد وفاة صلاح الدين بابنه العزيز ، ودخل مصر فى ركابه ، ثم تحول إلى الشام وتغلغل فى آسيا الصغرى ، ورجع أخيراً إلى حلب .

وهو يقص علينا ذلك كله منوهاً بفضله وعلمه ومعرفته فى الطب وغيره ، ويبدأ حديثه أو سيرته بأنه ولد فى بغداد بدرب الفالوذج سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١م وقد أخذه أبوه بالتعليم منذ نعومة أظفاره ، فسمع الحديث النبوى ، ونال فيه إجازات مختلفة. وأثناء ذلك حفظ القرآن الكريم وفصيح ثَعْلب ومقامات بديع الزمان والحريرى وديوان المتنبى ومختصراً فى الفقه وآخر فى النحو. واختلف فى دروس العلم الأخير إلى ابن الأنبارى وغيره، ويقول إنه أكبّ على كثير من أمهات اللغة والنحو ومشكل القرآن وكتب الغزالى ، ثم انتقل إلى كتب ابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية ، ولم يزل على ذلك إلى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م فتحول عن بغداد إلى الموصل . وهناك بدأ الاشتغال بالتدريس ، فأعجب به الناس — كما يقول — لسعة محفوظه وسرعة خاطره . وظل على ذلك عاماً ، ثم دخل دمشق ، وفيها ناظر العلماء ، وغلبهم بحجة لسانه ، وألف بعض كتب فى الحديث والنحو وعلم الكلام .

ويَحْكى أنه توجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا ، وهو يحاصرها ، محاولا أن يستردها من أيدى الصليبيين . وتعرَّف على القاضى الفاضل؛ يقول : « ودخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلا كله رأس وقلب. وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه

فى إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه » . وسأله القاضى الفاضل عن مقصده ، فقال له إنى أريد مصر ، فكتب له ورقة صغيرة إلى وكيله بها ، وكان ابن سناء الملك الشاعر المصرى المشهور ، فأكرمه وأنزله داراً جاءته فيها الهدايا والصلات من كل جانب . ويقول إنه كان يريد أن يلتقى بمصر بثلاثة أشخاص من المتفلسفة هم ياسين السيمائى وموسى بن ميمون اليهودى وأبو القاسم الشارعى ، والتقى بهم ، ولم يعجب بأولهم إذ وجده مشعبذاً ، أما موسى فوجده فاضلا لا فى الغاية ، وقرأ له كتاباً فى الطب ، وقال إنه نقله عن جالينوس وغيره دون زيادة ، وأما أبو القاسم فوجده يسير سيرة الحكماء العقلاء لا يشغله شىء عن طلب الفضيلة ، قيِّما بكتب القدماء وما كتبه الفارابى ، ويزعم أنه كان إذا تناقش معه غلبه بقوة الجدل وفَضْل اللَّسَن ، ويغلبه أبو القاسم بقوة الحجة وظهور المحجة.

ثم عاد إلى القدس وألم بصلاح الدين ، ووصفه ، فقال : « رأيت ملكاً عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، سهلا مجيباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: "ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ" . وأول ليلة حَضَرْتُه وجدت مجلساً حافلا بأهل العلم ، يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه فى ذلك . . وكان مهتماً فى بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسَّى به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل " وزيراه " ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر » .

وقرر له صلاح الدين وأولاده راتباً بدمشق ، فمكث بها سنوات مكبّاً على الاشتغال بالعلم والتحصيل وإقراء الناس بالجامع ، حتى أتيح له أن يعود إلى مصر مع سلطانها العزيز سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م؛ فلازم الشيخ أبا القاسم الشارعى وأجرى عليه السلطانُ ما يكفيه ، وكان يقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ عليه الطب وغيره ، ويرجع

آخر النهار إلى الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفى الليل يشتغل بالقراءة والتأليف . وحدثت فى مصر وباء وغلاء فاحش فوصفه ، ووصف آثار الأقدمين ومختلف الشئون الاجتماعية والعمرانية بمصر ، وذلك فى رسالته المشهورة التى سماها « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وتحدث عما تختص به مصر من النبات والحيوان حديث العالم المتفاسف والطبيب الحاذق .

ولما ملك مصر السلطان العادل توجه إلى القدس وأقام بها مدة ، يشتغل عليه الناس فيها بكثير من العلوم ، وصنف غير كتاب ، ثم زايلها إلى دمشق سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وأقبل عليه التلاميذ من كل حدب يأخذون عنه مختلف العلوم وخاصة علم الطب الذى برع فيه، وقدصنف فيه كتباً كثيرة حتى عرف به. ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد آسيا الصغرى وعاد منها إلى حلب ثانية وهو دائم التأليف والتصنيف ، مقبل على التدريس وإفادة الطلاب والتلاميذ .

وإنما لخصناهذه السيرة تلخيصاً، وهى طويلة، فليرجع إليها فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة من أراد . وحين ننعم النظر نجد كثيراً من تراجمه تنقل أخبارها مباشرة عن أصحابها ، فهى أشبه بتراجم شخصية وإن لم تكتب فى شكل سير ذاتية .

ومن المحقق أن كثيراً من تراجم المتفلسفة الشخصية فقدت وضاعت فى الطريق، ومن طريف ما أثر عنهم ترجمة السموءل بن يحيى المغربى لنفسه، وكان يهودياً فأنار الله بصيرته واعتنق الإسلام ، وهو يقص علينا فى ترجمته كيف بزغ له نور الحق وأضاء جوانب نفسه فأسلم وجهه لله ، ويستهلها بتعريفنا بأبيه وأنه كان من مدينة فاس بالمغرب ومن أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة واللسان العبرى، وترك هذه المدينة إلى بغداد، وفيها تزوج من أمه اليهودية. وشغله أبوه فى أول نشأته بالكتابة بالقلم العبرى وعلوم التوراة وتفاسيرها حتى إذا بلغ الثالثة عشرة اختلف إلى معلمى الحساب والزيجات والطب والحساب الديوانى وعلم المساحة والجبر والهندسة وغير ذلك من العلوم الرياضية ، وشغف أكثر ما شغف بالطب وفنون

العلاج ، ويقول إنه اخترع أدوية لم يسبق إليها .

ثم يذكر أنه قبل اشتغاله بهذه العلوم كان معنياً بالحكايات والأسمار والخرافات ؛ ثم مال إلى قراءة كتب التاريخ من مثل تجارب الأمم لابن مسكويه والطبرى ، وكانت تمر به أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وما ظهر على يده من المعجزات وخصه الله به من الكرامات ، وحبّاه به من النصر والتأييد فى الغزوات . ودفعه ذلك إلى تتبع سيرة الرسول ، فعرف أنه نشأ يتيما ضعيفاً ، على خلق عظيم ، وبعث فى قومه ، فجاهدهم ودعاهم بالموعظة الحسنة ، وهم يعادونه ويعاندونه ، حتى أذن له فى الهجرة إلى غير دارهم ، فهاجر إلى المدينة ، ومن هناك أخذت أشعة الإسلام تنطلق فى دروب الجزيرة العربية ، وفُتحت مكة ، ودخل العرب فى دين الله أفواجاً ، ثم انساحوا يفتحون البلاد ، فهزموا فارس والروم .

ويقول السموءل إن اطلاعه على هذه السيرة النبوية الذكية هو الذى جعله يؤمن بالإسلام ، وكان مما بعثه على هذا الإيمان القرآن الكريم وما يتضمن من بلاغة فوق مستوى البشر . وأخذ يراجع نفسه ، متأملاً فى اختلاف الناس فى الديانات وطالع الفصل الخاص ببِرْزَوَيْه فى كتاب كليلة ودمنة ، وقد سبقت الإشارة إليه ، وهداه هذا الفصل إلى تحكيم عقله ، فرأى الناس إنما يؤمنون بعامة الأنبياء عن طريق ما يرويه السلف عنهم رواية تواتر ، وأن الأنبياء فى ذلك متساوون ، فما دمنا قد سلمنا بالنبوة ، وصدقنا نبيًّا وجب أن نصدق الآخرين . يقول :

« لا يجوز للعاقل أن يصدق واحداً ويكذب واحداً من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، لأنه لم ير أحدهم ، ولا شاهد أحواله إلا بالنقل ، وشهادةُ التواتر موجودة لثلاثتهم ، " موسى وعيسى ومحمد " فليس من العقل والحكمة أن نصدق أحدهم ونكذب الباقيين ، بل الواجب عقلا أن نصدق الكل ، فأما تكذيب الكل فإن العقل لا يوجبه أيضاً ، لأنا إنما نجدهم أتوا بمكارم الأخلاق وندبوا إلى الفضائل ونهوا عن الرذائل ، ولأنا نجدهم قد ساسوا العالم سياسة بها صلاح أهله . فصحّ

عندى بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام وآمنت بهما » .

ثم يقص رؤيا رأى فيها أحد أنبياء بنى إسرائيل . وفيها أقرأه آيات من التوراة تشير إلى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، ونام عقبها ، فرأى صاحب الرسالة المحمدية يدعوه إلى الإسلام ، فدخل فى دين الله وهو شديد الفرح والسرور بما انكشف له من الهداية . وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

ومن غير شك وراء هؤلاء المتفلسفة الذين عُنوا بترجمة حياتهم ممن ذكرناهم كثيرون سَرَدُوا أخبارهم وقصّوا حياتهم ، ولكن أكثر ذلك سقط من يد الزمن ولم تبق إلا هذه السِّيَرُ القليلة التى تحدثنا عنها هذا الحديث المجمل .